جهود خالد بن يزيد في إنتاج الإكسير في العصر الأموي
(دراسة في مخطوط خالد ومريانوس)

مهند نايف مصطفى الدعجة

قسم الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل
الأحساء، المملكة العربية السعودية

الملخص

إن الحديث عن الجوانب المضيئة في الحضارة العربية الإسلامية لم يلق العناية الكافية، كما أن أغلب ما دُرس خص دور العلماء المسلمين في رقي العلوم الإنسانية وتقدمها. ومن هنا جاء هذا البحث لإلقاء الضوء على جهود أحد علماء العرب المسلمين ودورهم في ازدهار العلوم الطبيعية (خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)، خاصة في علم الكيمياء، وتحديدا في صناعة الذهب «الإكسير»، مع التركيز على الجوانب التطبيقية في هذا العمل.

ولأهمية هذه الدراسة ولارتباط الجانب السياسي بالعلمي في حياة هذا العَالِم؛ فقد قسمت البحث إلى بابين: الباب الأول: الانقلاب السياسي/ العلمي في حياة خالد، تحدثت فيه عن اختزال الخلافة من الوريث الشرعي خالد -وفقا لمبدأ الخلافة الأموية- وما ترتب على ذلك من نتائج. أما الباب الثاني: الجانب التطبيقي (العلمي) لإنتاج الإكسير فتمت الإشارة فيه إلى الدوافع الحقيقية لاتجاه خالد لهذا العلم، مع بيان منهجه العلمي وتجربته الشخصية في طريق التعلم، ومسألة تقربه من الراهب مريانوس وتعلمه منه الصنعة، وما جرى بينهما من أسئلة كان من أبرز نتائجها قيام خالد بإنشاء معمل كيميائي في قصره، وتحويل العلم النظري إلى تطبيق عملي تجريبي؛ فأسهم في دعم الحضارة العربية الإسلامية بدراسة طريقة تحويل المعادن الرخيصة إلى نفيسة. وساعده هذا الإنجاز على التفوق في شؤون أخرى مثل صناعة الأسلحة.

الكلمات المفتاحية: الذهب، المخطوطات، المعادن النفيسة.

المقدمة

إن الحديث عن الجوانب المضيئة في حضارة العرب والمسلمين لم يلق العناية الكافية حتى الآن، فمن يطالع الكتب التي ألفت في الحضارة العربية الإسلامية يلحظ أنها مكررة عن سلفها في أغلبها. كما أن إظهار دور العلماء المسلمين كان في أغلبه نظريا. ومن هنا جاء هذا البحث محاولة لإلقاء الضوء على أحد علماء العرب المسلمين ودورهم في ازدهار العلوم الطبيعية، وخاصة علم الكيمياء، وتحديدا صناعة الذهب «الإكسير»، مع التركيز على الجوانب التطبيقية في هذا العمل.

لا أحد ينكر فضل العالم المسلم الكبير جابر بن حيان في علم الكيمياء، لكن يجب عدم إغفال خالد بن يزيد بن معاوية الذي سبقه في هذا المجال وأبدع فيه.

ولأهمية هذه الدراسة ولارتباط الجانب السياسي بالعلمي في حياة هذا العالم، ولأن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان قد اشتغل بالسياسة وحاول الوصول للخلافة، فقد قسمت البحث إلى بابين: الباب الأول وسميته: بالانقلاب السياسي العلمي في حياة خالد: وتحدثت من خلاله عن اختزال الخلافة من الوريث الشرعي خالد -وفقا لمبدأ الخلافة الأموية- بعد وفاة أخيه معاوية الثاني، كما تحدثت عن عدم رضا خالد عن ذلك الاختزال، الأمر الذي دفعه لتأييد أي حركة من شأنها أن تعيد له حقه في الخلافة، سواء كان في خلافة مروان بن الحكم أو في عهد ابنه عبد الملك ثم حفيده الوليد، وأشرت إلى فشل خالد في إعادة حقه، الأمر الذي دفعه إلى اعتزال السياسة، فشكل ذلك منعطفا علميا بحياته، نجح من خلاله في إعادة بعض أمجاده بعيدا عن السياسة.

أما الباب الثاني: الجانب التطبيقي (العلمي) لإنتاج الإكسير فبدأ بالإشارة إلى الدوافع الحقيقية لاتجاه خالد لهذا العلم، كما جاءت على لسانه وذكرها صراحة، مع بيان منهجه العلمي في طريق التعلم، وسعيا وراء ذلك تحدثت عن مسألة تقربه من الراهب مريانوس وتعلمه الصنعة منه، وما جرى بينهما من أسئلة كان من أبرز نتائجها قيام خالد بإنشاء معمل كيميائي في قصره، وتحويل التعلم النظري إلى تطبيق عملي تجريبي، فأسهم في رفد الحضارة العربية الإسلامية بتعلم طريقة تحويل المعادن الرخيصة إلى نفيسة. وساعده هذا الإنجاز إلى التفوق في العلوم الأخرى – كما سيتضح في ورقات البحث.

أما عن منهج الدراسة في هذا البحث، فقد جمعت أكبر قدر ممكن من المعلومات القيمة عن

حياة خالد وعلمه من المصادر الأصيلة، واعتمدت في أخذ المعلومة على المصدر الأقدم فالأحدث بتوثيق علمي موحد.

وقد اعتمدت في الدرجة الأولى على مخطوط لم يحقق بعد: (ديوان خالد بن يزيد مع مريانس)، وقد حصلت على النسخة المخطوطة بخزانة الكتب الظاهرية في دمشق، ومن الإنصاف ذكر من ألف في هذا الأمر -الدراسات السابقة- فقد أبدع الدكتور محمد خريسات بتأليف بحث بعنوان: (خالد بن يزيد واهتماماته العلمية)، مجلة دراسات تاريخية في دمشق، وقد ركزت على الجوانب العلمية بعمومية، واهتمت بمسألة الخلافة وتطورها. وكذلك، فاضل خليل، في بحثه: الجوانب الدينية والأدبية في اهتمامات العالم العربي (خالد بن يزيد)، لكنها لم تتحدث عن الإكسير وكيفية تحضيره، ومع ذلك فقد أفدت منهما.

الباب الأول: الجانب النظري

مفهوم الإكسير

الإكسير أو إكسير الفلاسفة هو الوسيلة التي يعتقد رجال الكيمياء أنهم يستطيعون بها تحويل المعادن الخسيسة إلى فضة وذهب وهو مرادف لحجر الفلاسفة.

وبذلك فالإكسير يدخل المعادن وينفذ فيها كما ينفذ السم في الجسد، والقليل منه يحيل المعدن إلى ذهب ما يبلغ وزنه مليون مرة من وزن كمية الإكسير، وهو لا يحفظ إلا في أوان من الذهب أو الفضة أو البلور لأنه يؤثر في الزجاج.

ويعرفه الخوارزمي بأنه «مركب من جسد وروح، وملح الإكسير هو الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهبا أو فضة، أو غيره إلى البياض أو الصفرة، وقيل إنه مشهور الاسم معدوم الجسم»[1].

وقد انتقلت كلمة إكسير إلى فلاسفة العصور الوسطى عن طريق مصنفات العرب في الكيمياء وخاصة ابن سينا، ومنهم: روجر باكون، وريموندس لالوس، ويعد الإكسير عند باكون وفي المصادر العربية التي نقل عنها وسيلة لإطالة الحياة؛ وذلك لأنه لما كان الإكسير يرفع المعادن الخسيسة إلى الكمال ويبرئها مما فيها من نقص فإنه يستطيع إزالة علل البدن ويحفظه سليما ويطيل الحياة. وكان يحضر إكسير الحياة منذ قرون ولا يزال يحضر إلى الآن من جميع العناصر باختلاف أنواعها[2].

ومن هنا فإن الحديث عن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الوريث للخلافة بعد وفاة أخيه معاوية حفيد معاوية الثاني، مع ما امتاز به من أدب وعلم ونبوغ، سيوضح الفكرة والرؤية المرجوة إن شاء الله، كما ستتوضح شخصيته وصفاته في ورقات البحث.

الانقلاب السياسي العلمي في حياة خالد

لا بد في البداية من إشارة إلى ملامح الخلافة، وكيف أصبحت هاجس خالد بن يزيد، وهذا يعيدنا إلى وفاة معاوية بن يزيد بن أبي سفيان، وما أحاط بها من غموض هيأ الفرصة لمراكز القوى بالتحرك نحو الخلافة، فهنالك العديد من الشخصيات التي وجدت من الفراغ السياسي في الدولة الإسلامية وسيلة لتحقيق مكاسبها، وأعني بذلك أن أقوى مرشح للخلافة بعد وفاة معاوية كان عبد الله بن الزبير، إلا أنه كان في الحجاز بعيدا عن مركز الدولة وعاصمتها دمشق، ثم إنه لم يكن أمويا، الأمر الذي كان يعارضه بنو أمية[3]. غير أن مركزه كان قويا خاصة عندما وقفت إلى جانبه الأمصار، فكان بمصر عبد الرحمن بن جحدم الفهري يدعو لابن الزبير، وبحمص النعمان بن بشير الأنصاري وبقنسرين زفر بن الحارث الكلابي، وكذلك بالكوفة عبد الله بن مطيع، وفي البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وبخراسان عبد الله بن حازم السلمي، وهكذا مالت إليه جميع الأمصار باستثناء الأردن بزعامة حسان بن بحدل الكلبي[4]، وكان مما يدعم موقف ابن الزبير أن الضحاك بن قيس الفهري كان يهواه ويدعو بدمشق إلى بيعته[5]، وأكد ذلك ما روي:

(1) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص261-262.

(2) بريل، موجز دائرة المعارف الإسلامية 1/ 494.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 352.

(4) البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 352-353. وابن قتيبة، الإمامة والسياسة 2/ 191. والبياسي، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام 2/ 244. وابن الأثير، الكامل 4/ 145. وفروخ، تاريخ صدر الإسلام، ص 138.

(5) الطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 533. وابن الوردي، تاريخ ابن الوردي 1/ 166.
والنعمان بن بشير الأنصاري: ولد سنة اثنين من الهجرة، وكان من أمراء معاوية، فولي الكوفة مدة، ثم ولي قضاء دمشق، ثم ولي إمرة حمص. الذهبي، تاريخ الإسلام، ص 412.

«أن الضحاك بن قيس كان من أمراء الأجناد الذين خالفوا بدمشق، ودعا الناس سرّا ثم علانية، وبايعوا لابن الزبير، فلما بلغ ابن الزبير ذلك كتب إلى الضحاك بعهده على الشام فكتب الضحاك إلى أمراء الأجناد ممن دعا إلى ابن الزبير فأتوه»[1].

وهذا الموقف قد وضع بني أمية في موضع حرج مما دفع مروان إلى العزم على الذهاب لمبايعة عبد الله بن الزبير، فقيل أن عبيد الله بن زياد بعد أن أخرجه أهل العراق التقى بمروان ودار حديث بينهما انتهى بقول عبيد الله لمروان: «والله لأنت أولى بها منه»[2]، فقال له مروان: فما الرأي؟ قال: أن ترجع وتدعو إلى نفسك وأنا أكفيك قريشا ومواليها ولا يخالف منهم أحد، فقال عمرو بن سعيد: صدق عبيد الله، إنك لجذم قريش وشيخها وسيدها، وما ينظر الناس إلا إلى هذا الغلام خالد بن يزيد بن معاوية، فتزوج أمه فيكون في حجرك وادع إلى نفسك، فأنا أكفيك اليمانية، فإنهم لا يخالفوني وكان مطاعا عندهم، على أن تبايع لي من بعدك، قال: نعم»[3].

وتصور هذه الرواية عودة مروان وعمرو بن سعيد وعبيد الله إلى دمشق للدعوة لنفسه بدلا من ابن الزبير، الأمر الذي جعل الناس يتخذون منه موقفا بقولهم: «أخذت بيعتنا وعهودنا لرجل ثم تدعو إلى خلعه، فلما رأى ذلك عاد للدعوة لابن الزبير، فعندها أقنعه عبيد الله باللجوء إلى الحل العسكري قائلا له: من أراد ما تريد لم ينزل المدائن والحصون، يبرز ويجمع إليه الخيل، فاخرج عن دمشق واضمم إليك الأجناد، فخرج الضحاك فنزل المرج، وبقي عبيد الله بدمشق ومروان وبنو أمية بتدمر، وخالد وعبد الله أبناء يزيد بن معاوية بالجابية عند خالهما حسان بن مالك بن بحدل، فكتب عبيد الله إلى مروان أن ادع الناس إلى بيعتك واكتب إلى حسان بن مالك فليأتك فإنه لن يردك عن بيعتك ثم سر إلى الضحاك فقد أصحر لك، فدعا عندها مروان بني أمية فبايعوه، ورفض حسان بن مالك بن بحدل أن يبايع لمروان قائلا: والله لئن بايعتم مروان ليحسدنكم علاقة سوط وشراك نعل وظل شجرة، إن مروان وآل مروان أهل بيت من قيس (يقصد أن مروان أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة)، فإن بايعتم له كنتم عبيدا لهم، فأطيعوني وبايعوا خالد بن يزيد». غير أن هذا الكلام لم يكن ليقنع بني أمية بصغير السن، وهذا ما جاء على لسان روح بن زنباع الجذامي «بايعوا الكبير واستشبوا الصغير» ويبدو أن حسان بن مالك بذل جهدا كبيرا في جعل الخلافة لخالد لكنه عجز عن ذلك عندما وجد أن كفة مروان هي الراجحة، فما كان من حسان إلا أن أجاب خالد بن يزيد بأن الناس آثروا مروان لسنه وتجربته «يا ابن أختي هواي فيك وقد أباك الناس للحداثة، ومروان أحب إليهم منك ومن ابن الزبير». فأجاب خالد خاله حسان قائلا «بل عجزت».

وعلى أثر ذلك تمت بيعة مروان بالجابية سنة (64هـ/ 683م)، وكان مما شرط في الجابية: «ألا يبايع مروان لأحد إلا لخالد بن يزيد، ولخالد إمرة حمص وللأشدق من بعده وله إمرة دمشق»[4].

والواقع أن مروان بدا أوفر حظا حين قدومه إلى الجابية، بعدما نجح في توحيد بني العاص الذين تفوقوا عددا وقوة على بني سفيان في قريش، كما توصل إلى إقناع عمرو بن سعيد الذي ورث زعامة الجناح الآخر من بني العاص بعد وفاة أبيه في الوقوف إلى جانبه، وكذلك برز دور عبيد الله بن زياد لمصلحة مروان بينما اقتصر تأييد خالد بن يزيد على قبيلة كلب وفرع من السكون بقيادة مالك من هبيرة السكوني، وبذلك ضمن مروان في الجابية تأييد بني العاص والقبائل الشامية الأخرى، باستثناء قلة قليلة وقفت كما يبدو على الحياد.

لقد كان هنالك نوع من التقديم والمفاضلة في

وعبد الله بن مطيع، كان واليا على الكوفة عندما ثار عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان. العسقلاني، الإصابة، ص 200.

والحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومي استعمله عبد الله بن الزبير على البصرة هو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. العسقلاني، الإصابة، ص 72.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 40. وابن عبد ربه، العقد الفريد 5/ 135.

(2) أعتقد أن هذا الموقف إن صح من عبيد الله فذلك لما رآه عبيد الله من فقدان لما كان يتمتع به من مميزات في ولايته على البصرة في خلافة السّفيانيين، وأن هذه المميزات ستعود إليه إذا ما وقف إلى جانب مروان بن الحكم، في أقل الظروف لأن مروان من بني أمية والسّفيانيين من بني أمية ومروان هو المرشح الأقوى في نظر عبيد الله.

(3) وكان عبد الملك بن مروان قد أشار على والده مروان بقوله «لست أشك مع الاختلاف الذي أرى أن الأمر صاير إليك». الطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 537.

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 40-41. وخليفة، تاريخ خليفة، ص 253. واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي 2/ 257.

نظر بني أمية ومؤيديهم للمرشح لمنصب الخلافة، فهم متفقون على أن الخليفة يجب أن يكون من بني أمية، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون ندًّا قويًّا لمواجهة ابن الزبير. وبالتالي كانت نظرتهم لخالد غير مرضية، لقولهم «نحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ -عبد الله بن الزبير- ونأتيهم بصبي»[1].

وروى وهب بن جرير «أن أهل الأردن بايعوا -بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية- خالد بن يزيد وهو يومئذ غلام شاب، فلما قدم ابن زياد الأردن على بني أمية وقد بايعوا خالدا فقال: إنكم قد أخطأتم الرأي في بيعة خالد وقد بايع الناس ابن الزبير، وأنتم تبايعون غلاما حديث السن ليست له حنكة وتريدون أن تقارعوا به ابن الزبير، وأشار عليهم بمروان بن الحكم، وقال: إن له سنا وفقها وفضلا»[2].

ويقال: إن بعض أهل الأردن كانوا مائلين إلى نائل ومنحرفين عن حسان بن مالك بن بحدل، وكانت الزبيرية بالشام تقدم ابن الزبير وتبين فضله، فأظهر حسان بن مالك بن بحدل الدعاء لخالد بن يزيد بن معاوية، وعزم عليه فسار في كلب حتى نزل الجابية، فاجتمع بها بني أمية، فقال أحدهم أراك تريد هذا الأمر لخالد بن يزيد وهو حديث السن فقال: إنه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة، ثم قدم نفر من بني أمية إلى خالد فوجدوه نائما فقالوا: يا قوم أنجعل نحورنا أغراضا للأسنة والسهام بهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة، وبعد حديث جرى بين بني أمية قام حسان خطيبا وقال في وصف مروان: «هو كبير قريش وسنها[3]، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه قبل الناس أجمعين، فبايعوه فهو أولى بميراث عثمان وأحق بالأمر»[4].

وكان على مروان أن يستكمل البيعة من الأمصار، فسار من الجابية إلى مرج راهط، فاقتتل مع جيش الضحاك بن قيس، وانتهت بقتل الضحاك وانتصار مروان وعودته إلى دمشق وأخذ البيعة من أهل الشام[5].

(1) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 132. والطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 532. وانظر: ابن الأثير، الكامل 4/ 148.
(2) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 143-144.
(3) ابن قتيبة، الإمامة 2/ 192.
(4) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 128-129.
(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 42. والأصفهاني، الأغاني 19/ 142-143.

وإزاء هذه الأحداث وتطوراتها، استطاع مروان بحنكته أن يمتص الغضب الذي كان في نفس خالد؛ بزواجه من «أم هاشم بنت عتبة» والدة خالد بن يزيد بن معاوية[6]، ليكسب بذلك ولاء خالد وكلب وأتباعهم من جهة، وليضعف أمر خالد من جهة أخرى، ويبدو أن مروان قد تسمى في هذه الفترة بأبي خالد[7]، ليمتص غضب خالد وليكسب تأييده.

غير أن العلاقة ما لبثت أن ازدادت سوءا بين خالد بن يزيد بن معاوية الذي رأى أن حقه في الخلافة قد اختزل، وبين مروان بن الحكم الذي كان يرغب بالتخلص مما قطعه على نفسه في الجابية من مبايعة خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق بالخلافة من بعده.

فيروى أن مروان عندما أراد التوجه لمصر لإخضاعها، كان قد استنجد بما عند خالد بن يزيد بن معاوية من سلاح، فأجابه خالد لذلك. فعندما أخضع مروان مصر وعاد إلى الشام رفض أن يعيد السلاح إلى خالد ووبخه أمام الناس[8]. وهذه الرواية تدل على أن مروان أراد من «مشاركة خالد والأشدق معه»[9] مصادرة أسلحتهما، لكيلا يعطيهما الفرصة للانقضاض في الشام عند خروجه إلى مصر، ولكن هل يعقل أن مروان يقرر الخروج إلى مصر ليدخلها في طاعته دون أن يكون معدا لذلك جيشا قويا مجهزا بالأسلحة، وفي السبب الدافع لمروان لرفض إعادة السلاح لخالد عند عودته من مصر نفس السبب الذي من أجله طلب منه السلاح، لأنه أراد أن يحد من قوة خالد في الشام[10].

ويبدو أن العلاقة بينهما بعد إخضاع مصر واستتباب الأمن في الشام بدأ يسودها القلق والاضطراب، فخالد يعد نفسه الخليفة بعد مروان، ومروان يفكر في نقل الأمر لولده، الأمر الذي دفع مروان ليخاطب خالد في أحد المجالس قائلا له: «يا ابن الرطبة»[11]، فكان هذا مما أزعج خالد، فبادر إلى

(6) الطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 541.
(7) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة 3/ 165.
(8) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 302. وابن قتيبة، الإمامة 2/ 192.
(9) الكندي، الولاة والقضاة، ص 42. وابن العديم، بغية الطلب 7/ 3185.
(10) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 364.
(11) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 145.

والدته زوج مروان، وأخبرها بالأمر، فما كان منها -على ما يروى- إلا أن دبرت أمرا فقتلته[1].

ومما يشير إلى توتر العلاقة بينهما ما رواه هشام بن عمار الدمشقي قال: «أقصى مروان خالد بن يزيد بن معاوية وجفاه فدخل عليه يوما وهو يتمثل:

وما الناسُ بالنّاسِ الذينَ عَهدتُهم
وما الدار بالدار التي كُنْتَ تعرفُ

وعلى أثر ذلك شتمه مروان وقال له ما الذي تنكر[2]، وكان رد خالد: والله لئن كان اؤتمن فما أدى الأمانة ولا أحسن»[3].

وروى هشام بن محمد الكلبي أن سبب سوء العلاقة هو غدر مروان بخالد فيما وعده من ولاية العهد[4]، وبيعته لابنه عبد الملك بدلا منه[5]. وكان خالد يقول: «أما إني أرى ثأري في مروان صباح مساء ولو أشاء أزيله لأزلته»[6].

ثم بايع مروان لابنيه عبد الملك ولعبد العزيز من بعده ونقض بيعة خالد، وذلك بعد أن قام مروان بإقناع حسان بن مالك بن بحدل الكلبي المطالب بخلافة خالد بالترغيب والترهيب[7]، فلما توفي مروان (65هـ/ 684م)[8]، تولى الخلافة عبد الملك وتولى أخاه عبد العزيز مصر فلم يزل عبد العزيز عليها حتى مات[9].

وفي بداية خلافة عبد الملك كانت الشام ومصر في يده، وكان العراق والحجاز بيد ابن الزبير، وكانت الفتنة بينهما إلى أن قتل ابن الزبير سنة (73هـ/ 692م) واستقام الأمر بعد ذلك لعبد الملك[10].

وفي محاولة استرداد خالد للخلافة ظهرت مساندته لحركة عمرو بن سعيد الأشدق، من خلال موقفه المشجع لعمرو بن سعيد بحركته في دمشق، روى الواقدي: أنه عندما خرج عبد الملك لقتال مصعب، جلس خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد لتذاكر أمر عبد الملك ومسيرهما معه، على خديعة منه ومواعيد باطلة، فعندها قرر عمرو بن سعيد العودة إلى دمشق، فشجعه خالد على ذلك[11].

ومن خلال موقف خالد المؤيد لحركة الأشدق، أدرك عبد الملك ما في نفسه، لذلك اصطحبه معه -كما فعل مروان عندما اصطحب خالد معه لمصر- بعدما قتل الأشدق وذهب لقتال مصعب بن الزبير، وكان خالد بن يزيد بن معاوية على ميسرة الجيش[12].

كما أن الخليفة عبد الملك بن مروان، كان قد اصطحب معه خالد بن يزيد بن معاوية عندما توجه لإخضاع زفر بن الحارث الكلابي على أثر ثورته بقرقيسيا أيضا[13].

وفي الوقت الذي بايع فيه مروان لولديه عبد الملك ولعبد العزيز، أيس خالد -كما روى الواقدي- «وهو مع عبد الملك على الطمع والخوف»[14]، وفي الوقت الذي أراد فيه عبد الملك أن يبايع لولديه من بعده، عمل على استرضاء خالد بإمرة حمص[15]، ليكسبه إلى جانبه على أثر الثورات والضغوطات التي تواجه الدولة، ولتحقيق ذلك تظاهر عبد الملك بقبول أحد شروط الجابية الفرعية وهو أن يكون لخالد إمرة حمص.

وكوسيلة للتقليل من شأن خالد، كما يستفاد مما أورده ابن عساكر، أن آل أبي سفيان كانوا أصحاب أملاك وثراء، وأن عبد الملك أراد أن يحد من هذا الثراء؛ فقد اشترى عبد الملك من خالد بن يزيد بن معاوية قصر الخضراء -دار الإمارة- بدمشق بأربعين ألف دينار، وكذلك اشترى منه أربع ضياع بأربعة أجناد في الشام اختارهن، فاشترى من خالد ضيعة بفلسطين عمواس، ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص

(1) فقيل: إنها سقته سما، وقيل: وضعت وسادة على وجهه وقتلته هي وجواريها. البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 145.
(2) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 158. والطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 611. وابن عبد البر، الاستيعاب 3/ 1389. والفاسي، العقد الثمين 7/ 168.
(3) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 158. وابن الأثير، أسد الغابة 5/ 145.
(4) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 159.
(5) المسعودي، مروج الذهب 3/ 98.
(6) ابن العديم، بغية الطلب 7/ 3191.
(7) البياسي، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام 2/ 255.
(8) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 43.
(9) البلاذري، أنساب الأشراف 5/ 145.
(10) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 43.
(11) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 227. وابن العديم، بغية الطلب 7/ 3184. وابن عساكر، تاريخ دمشق 46/ 42.
(12) الطبري، تاريخ الرسل والملوك 6/ 156.
(13) البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 364.
(14) ابن سعد، الطبقات الكبرى 5/ 227.
(15) البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 364.

دير زكي[1].

وهذا مما يدل على أن خالد بن يزيد كان من كبار الملاك[2]، ومن الطبيعي أن من يملك المال الكثير والأملاك يستطيع أن يهدد الدولة إذا ما سنحت له فرصة، ثم إن شراء عبد الملك قصر الخضراء من خالد، يحوي دلالة سياسية وهي إنهاء فكرة وراثة الخلافة التي تطلع إليها خالد منذ زمن جدهم معاوية بن أبي سفيان الذي ابتنى ذلك القصر.

الباب الثاني: الجانب العلمي

أسباب اهتمام خالد بالإكسير

عندما فشل خالد بن يزيد في الوصول إلى الخلافة، اتجه إلى طلب العلوم فنبغ في هذا المجال، ويبدو أن اهتمام خالد بالعلوم كان على إثر ما وصله من الكتاب الذي أهداه ملك الصين لجده معاوية بن أبي سفيان، وكان كتابا من سرائر علومهم، وقد اهتم في بادئ الأمر بعلم الصنعة «علم الكيمياء»[3]، فجلب العلماء من مصر ليترجموا العلوم الكيميائية والطبية من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وكان يعيش في الإسكندرية راهب يدعى «مريانوس» كان يشتغل في الكيمياء، وقد سمع به خالد بن يزيد واستدعاه ليتعلم منه الصنعة[4].

حيث أرسل خالد بن يزيد مولاه وكاتبه غالب إلى مريانوس ليطلبه، وكان كبيرا في السن فأتاه وأكرمه، وجرت بينهم أسئلة وأجوبة كثيرة استفاد من خلالها خالد بن يزيد ودونّها له كاتبه غالب، وكان خالد قد طلب من مريانوس أن يقيم معه حتى يجرب ما تعلمه منه، ولا يقتصر الأمر على الأمور النظرية فقط، وقد تحقق لخالد ذلك.

وإن المتتبع لما جرى من أسئلة بين خالد ومريانوس يلحظ اهتمام خالد بعلم الصنعة، ودهشته من رأي الحكماء السالفين، فكثيرا ما كان مريانوس يستشهد برأي الحكماء وأصحاب الصنعة السالفين له، فقد قال خالد لمريانوس: «إني أسمع منك عجائب، وقولا ما خطر ببالي قط».

ومما يؤكد اشتغال خالد بهذه المعارف والعلوم، أن خالدا بنى قصرا خارج حمص «هو معروف لهذه الغاية»، وهو قصر خالد.

لقد شغف خالد حبا بهذا العلم ودافع عنه بأسلوب ينم عن معرفة ودراية فقال في ذلك: «لم أزل بحمد الله منذ سمت همتي وعلقت مهجتي بالفهم أطلب الصنعة، لعلمي بما فيها من الكرامة والرفعة، إذ هي أشرف الصناعات كلها، وأخفها مؤنة، وأكثرها معونة، وأقلها تعبا، وأكثرها نشبا، وأهنأها منالا، وأوسعها أحوالا، وأجملها للمنفعة، وأبعدها للمضرة، وأمتعها مكرمة، وأعظمها موهبة، وأصونها للنفس، وأذهبها للبخس، وأحلها مأكلا، وأخفها محملا.. كل الناس متعب، مكدود متشغب، إلا صاحب هذه الصناعة الرفيعة، والمختص بنيل هذه المنزلة الرفيعة زرعه في بيته، وتجارته في يده، رزقه كثير، وربحه غزير، لا يخشى على زرعه فسادا، ولا على تجارته بوارا، لا تقهره الأشراف -مستذكرا ما حل به من اختزال حقه بالخلافة- ولا يهدمه الإعناف، ليس غناه في مكان دون مكان، ولا أوان دون أوان، لا يسلبه سالب، ولا ينهبه ناهب، للمعروف طلاب، وللأموال وهاب، ومن الفقر آمن، وإلى الغنى راكن، قلبه من الغموم صفر، وبدنه من التعب قفر، كفي ذل المكاسب، وتعب المطالب، وجهه مصون، لا يبذل ولا يهون، حاز ملكا لا يخاف زواله -كالخلافة- ولا يخشى انتقاله، لازما له عمره، مقيما معه دهره، فعيشه هني، وحاله رضي، وقلبه غني، وباله رضي، فمن ذا في الفخار يدانيه، وفي ميدان الفضل يجاريه، هيهات هيهات، لقد حاز من الدرج أعلاه، ومن المراتب أسناها، فلا يباريه إلا عديله -منافسه في العلم- ولا يناوئه إلا مثيله، فأي صناعة أولى بالطلب والبحث عليها من صناعة تمنع من الهموم والتعب، والشغل وذل المكتسب، والمخاطر في المطلب، وبذل الوجه والاستصغار، والدناءة والاستحقار بل كيف يبلغ مادح مديح صنعة ظاهرها لعب الصبيان، وباطنها حكمة الرحمن، حصادها ذهب ولجين، قصيرة

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق 2/ 359.
وأندر: قرية بالشام من قرى دمشق. البكري، معجم ما استعجم 1/ 198.
ودَيْر زكيّ: دير بالرُّها بإزائه تلٌّ يقال له زفر بن الحارث الكلابي وفيه ضيعة يقال لها الصالحية اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي. الحموي، معجم البلدان 2/ 512.

(2) حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، ص 66.

(3) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص121.

(4) المقريزي، المقفى الكبير 3/ 776–782. والدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص90.

المدة، كثيرة التمكن في كل بلدة، وتدور معه أينما دار، وتغل له ما شاء من عقار.. جميع المخلوقات بين يديه، وجملة النعمات تنهال عليه، أكرم بها من صنعة وأشرف بها من عدة»[1].

التقاء خالد مع مريانوس

يبدو أن خالدا خرج ذات يوم متنزها إلى دير مران بدمشق، فأتاه رجل من بيت المقدس فسلم عليه وقدم له نصيحة، قال فيها: «بلغني أنك تطلب الصنعة، فأتيت لأخبرك عن رجل رومي في جبال بيت المقدس يهدي كل سنة إلى بيت المقدس من الذهب شيئا كثيرا». ففرح خالد بهذا الخبر وأكرم الرجل وأرسل غالب مولاه في طلب مريانوس الرومي السائح في جبال بيت المقدس -بحثا عن المعادن النفيسة- فوجده بعد عناء، شيخا كبيرا ضعيفا طويلا، حسن الصورة بهي المنظر، فقدموا به إلى خالد، فاستضافه وأكرمه وأنزله في قصره، وأمر أن يقيم معه رجل من مشايخ النصارى القدماء يؤانسه ويحادثه.

وكان خالد يأتيه كل يوم مرتين يجالسه ويحادثه ولا يسأله عن الصنعة، إنما كان يسمع منه حديثا عن الزمان والأمم الماضية وسير الملوك السالفين وأحاديث اليونانيين. فأعجب خالد بعلمه، ودار بينهما حوار طويل سأجمله فيما يأتي ثم أعرض الطريقة التي تعلمها خالد.

حوار خالد مع مريانوس وأدلة مريانوس على إجاباته

سؤال خالد:

1. كيف لي أن أتعلم الصنعة؟

(إني طلبت علم الصنعة لأعلمها وبحثت عن خبرها وأمرها واستقصيت عنها، فلم أجد من يخبرني عنها، وأنا أسألك أن تسبب لي أمرها وعلاجها)؟

إجابة مريانوس:

بدأ مريانوس يحدد الصفات العامة لطالب هذه المعرفة: أنصت للحكم معرفة وفهما تعلمها، وتفكر في أصول الأشياء تدرك فروعها، إن هذا الأمر الذي طلبت ليس يقدر عليه أحد إلا بتؤدة، ورفق وحب وصدق. فأول ذلك رزق يسوقه الله إلى من يشاء من خلقه بالقدرة الغالبة، يتسبب له تعلم ذلك، ويكشف له عن مستوره، وإنما هو موهبة من الله تعالى[2]. ثم نصح خالد ووعظه بالحياة والموت والغنى والفقر وبين له منهجه في علمه.

سؤال خالد:

2. هل يصنع الذهب من أصل واحد أم أشياء؟

إجابة مريانوس:

نعم من شيء واحد وأصل واحد وجوهر واحد منه وبه، ولا يدخل عليه داخل ولا غريب، ولا ينقص منه شيء. واعلم أنه لا بد لك من أخذ الهواء.

أدلة مريانوس:

- قال الملك هرقل لبعض تلاميذه: «أما في البداية فإنها من أصل واحد، وأما في الآخرة فإنها تتفرق ثم تكون أيضا واحدا»[3].
- قال إسطفانس الحكيم: إن هذه الأربع الطبائع هي: مزاوجة الحرارة والبرودة، واليبوسة والرطوبة بعضا ببعض بعمل. وإن هذه الأخلاط منها أصول، ومنها فروع محدثة؛ فأما الأصل فالماء والنار، وأما المحدث فالأرض والهواء[4].
- قال جرجس الراهب: كما أن الطبيعة السماوية ظهرت من الطبيعة الأرضية السفلى البشرية، كذلك الطبيعة العليا الكريمة المبذولة خلقت من الطبيعة السفلية. ومن هذه الطبيعة تكون الصنعة لا من غيرها؛ فالطبيعة العليا ألطف جوهرا وأتم من الطبيعة السفلى. واعلم أن ما في السماء هو المؤثر لما في الأرض[5].
- قال هرمز: إن الأرض هي أم الطبائع؛ منها ولدت وإليها تعود[6]. وقيل: إن كل شيء من الأرض يخرج، والى الأرض يعود[7].

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، صورة المخطوط المحفوظ بخزانة الكتب الظاهرية بدمشق، ص192-214. وانظر: قاري، نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي، ص193-194.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص 198.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص199.

(4) انظر: خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص200.

(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص200.

(6) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص200.

(7) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع

- قال فيثاغورث: كما أن الأشياء كلها إنما كانت من الواحد، كذلك هذه الصنعة إنما هي شيء واحد.

وكما أن في بدن الإنسان الطبائع الأربع خلقها الله تعالى ذكره، وجعلها مفروقة منفصلة، ومنفصلة مجتمعة، ومتفرقة يجمعها بدن واحد، وكل واحد منها يعمل عملا غير صاحبه، له قوة ولون وسلطان على حدة، كذلك هذا الشيء. وفي هذا شهادات الحكماء إذا نظرت فيها كثيرة[1].

سؤال خالد:

3. إذا كان كما تقول من شيء واحد وجوهر واحد وأرض واحدة -عنصر واحد- فكيف إذًا كثرت أسماؤه؟

إجابة مريانوس:

أعلمك أن الحكماء لم يرددوا في القول وكثرة التدابير إلا إرادتهم أن يفهم عنهم أهل الرأي ويعمى عن صنعتهم أهل الجهل. وأخبرك أنهم على كثرة تدابيرهم التي وضعوها وكثروا في كتبهم لا يحتاجون إلا إلى تدبير وعمل واحد. وكذلك جميع الحكماء، وإن كانوا قد خالفوا في الأسماء والوصف، فإنما أرادوا طريقة واحدة وشيئا واحدا وتدبيرا واحدا وتراكيب وأوزانا وألوانا كثيرة شبهوا بها على الناس، ولم يكذبوا، لأنهم تكلموا على قدر ما رأوه بأعينهم وفهموه بينهم وغاب عن غيرهم[2].

أدلة مريانوس:

- يقول هرقل لبعض تلاميذه: إن النواة من النخلة أيضا، ومن النواة تكون الشجرة، ويخرج من أصلها فروع كثيرة، وتزهر بدون عدد.
- وكذلك قال هرمس الحكيم: انظروا إلى الأحمر التام والأحمر الناقص من حمرته، والأصفر التام والأصفر الناقص من صفرته، والأسود التام والأسود الناقص من سواده، وذلك من أصل واحد. والسنبلة من الحبة، والحبة من السنبلة، والأغصان الكثيرة من الشجر، والشجر من النواة.
- وقال الراهب جرجس أيضا: انظر إلى الثوب أيضا، بدنه وكمه وتخاريصه قميصا، وصنعه من خيوطه لا من غيره. وصنعتنا فهي من شيء واحد مستور مخزون أضفي عن الجهال رمزا، وألفته الحكماء وألفها، وبألف اسم سمي، وبكل مكان يكون، وهو مكتوم ظاهر تعرفه الحكماء وتكرمه، وتستخف به السفهاء وتحقره وتجهله.

وهذه أسماء كثيرة قد أتت بها الحكماء في مصاحفها -أراد بذلك القرآن الكريم- وذكرت منها النطفة وتغيرها حتى تصير دما، ثم مضغة ثم تتخلق من بعد ذلك خلقا حتى تصير دما، ثم مضغة ثم تتخلق من بعد ذلك حتى تصير إنسانا تاما. ومنها النخلة وما يبدو من ألوان ثمرها وأسمائها وطبائعها قبل أن تنتهي إلى آخرها. ومنها الرصاص والحنطة واللبن وأشياء كثيرة.

- وقال إرس لقيصر: بحق أقول، بحق أقول، إنما وقع الناس في الخطأ لكثرة الأسماء، فأما من عرف أنها ألوان تظهر في التركيب لم يخطئ الطريق[3].

سؤال خالد:

4. صف لي لونه كما وصفت عنصره؟

إجابة مريانوس:

إنما شأن الحكماء أن يصنعوا شيئا منه وبه قبل أن يضعوا الرماد ويحمر كما يحمر السيرقون، ومن قبل نفسه يتلون ويلبس البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة، وهو يتفتت من نفسه ويصدى ويلبس سائر الألوان المذكورة في درجات التدبير. ومع هذا فهو يتقيأ اللون الذي يلبسه هذه الألوان، ثم يشرب ما تقيأ فينجح الله منه ضعافه كما يخرج من القليل الكثير من الزرع وحب النبات[4].

سؤال خالد:

5. ما مجسة هذا الحجر ووزنه وطعمه وطبعه؟

إجابة مريانوس:

أما مجسته فنحاس غير معدني، نقي غير دنس، لين المجسة، كثير الرطوبة والسدونة، ورطوبته عند الحكماء أكثر من جسده، وهي العمدة، وأما طعمه فحلو، وأما طبعه فهو شكل الهواء[5].

مريانوس، ص200.

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص200.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص202.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص202.

(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص203.

(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع

سؤال خالد:

6. أخبرني عن رائحته قبل التدبير؟

إجابة مريانوس:

ثقيلة منتنة، قبل التدبير.

أدلة مريانوس:

أما بعد التدبير فهو الذي يقول فيه الحكيم: إن الماء يذهب برائحة الميت الذي لا روح فيه، الرائحة المنتنة الخبيثة التي تشبه رائحة المقابر. ويقول أيضا: من بيض الروح وأصعدها، وحمّر الجسد بالآلية، وطرد عنه الظلمة، وأخرج منه الرائحة الخبيثة، وأحكم استخراج الروح من الجسد، وأظهر عجائب عند الترويح، كان حكيما ماهرا.

- وقيل: وتفسد رائحتها ثم عند التمام تطيب الرائحة ولا يبقى من الكدر والرقودة والذهومة والرائحة الكريهة شيء[1].

سؤال خالد:

7. أرخيص هو أم غال؟

إجابة مريانوس:

اعلم أن الكبريت والزرنيخ والأتربة تحترق وتفسد ولا تلبث، ولا تعمل عملا فيه خير، وإن الزئبق على كل آبق، والعقاقير إذا شمت النار احترقت، فكيف ترجو خيرا من شيء يدخل النار ويحترق ويصير فحما، والحجارة لا تدخل في الظاهر حتى يصير باطنا، والباطن حتى يصير ظاهرا، وإلا فكف يدك عن كسبك، فإن كل شيء يشترى بثمن فلا خير فيه. وقد بينت لك ذلك كله، فلا يخدعنك أحد عن رأيك، وإياك والنفقة، فإن العمل التام ليس فيه نفقة ولا يشترى بثمن[2].

أدلة مريانوس:

- في ذلك يقول زوسم لأوثاسيته: أنا أحذرك أن تغوصي في العقاقير التي تسمى صنعة الذهب.
- وقال أيضا: من التمس شيئا من غير هذا الحجر فهو بمنزلة من أراد أن يصعد سلما بغير درج فسقط على وجهه[3].

سؤال خالد:

8. فعزيز هو أم موجود؟

إجابة مريانوس:

هو كما قال الحكيم: هو عند الغني والفقير، والشريف والوضيع، والمسافر والمقيم، وفي الطريق وعلى الزابل يوجد ويوطأ ويحقر. وما أحشم ما احتقرت السفهاء وجهلت، وأكرمت الحكماء وأحبت. واعلموا أيها الحكماء أنه واحد مكتوم مخزون فيه الطبائع الأربع، وهي أقوى الطبائع.

وقالت مارية: وبالحق أقول لكم إنه مطروح في المزابل ولكنه لا يعمل حتى يخرج روحه ويطهر، وترد إليه روحه وتسكن فيه. وهو في كل مكان[4].

سؤال خالد:

9. أخبرني عن موضع هذا الشيء ومعدنه الذي يوجد فيه إذا احتيج إليه؟

إجابة مريانوس:

هو ألزم الأشياء لك، وأحفظها لجثمانك، ومتى عدمته مت[5].

سؤال خالد:

10. هل تعرف حجرا يشبهه أو يعمل عمله؟

إجابة مريانوس:

ما أعرف حجرا يشبهه ويعمل عمله؛ لأن فيه الطبائع الأربع، وهو يشبه الدنيا وتركيبها، وليس في الدنيا حجر غيره يشبهه في عمله وطبائعه، ولم يعمل حكيم إلا به، ولو التمس العمل من غيره ما استقام له تدبير ولا طاوعه.

والرجال في هذا الأمر على أربعة منازل، إما رجل أودعه فكتمه، وهو أهل لأن يكتم ولا يخبر إلا لمن يستحقه، وإما رجل لا يطلب منه شيئا، وترك العاقل طلب الحكمة عجز وضعف رأي منه، وإما رجل يتبع من نفسه تدبيرا وعلاجا، فذاك الهالك المهلك لنفسه، وإما رجل أعمل نفسه وفرغ من قلبه لذلك، فصرف همته في كتب الأولين، وواظب على درسها، وأكب على النظر فيها، ووفقه الله لذلك وألهمه إياه، فما انفتح له منها شكر الله عز وجل على ذلك، وما بقي عليه

مريانوس، ص204.

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص204.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص205.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص205.

(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص206.

(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص206.

رغب إلى الله تعالى وتضرع إليه، وسأله أن يكشف له ما عجز عن فهمه[1].

سؤال خالد:

11. قد وعدتنا بذكر العمل فجد لنا بذلك؟

إجابة مريانوس:

أول ما أقول لك -وهو ابتداء العمل- أحذرك ألا تخرج عن الأصل، ولا تطلب بدلا منه، فإنك واجد المنفعة والخير أبدا منه لا بذاته، ولا تنقص منه شيئا، ولا تجعل عليه غيره، فإنه ليس يحمل شيئا من البدع.

واعلم أنه لا بد في هذا العمل من تزويج وتلقيح وولادة وتربية -مراحل التشكل- فإذا كان التزويج كان التلقيح، وإذا كان التلقيح كان الحمل، وإذا كان الحمل كانت الولادة، وليس علاج هذه الصنعة ببعيد عن خلق الإنسان؛ وذلك لأن خلق الإنسان غير صنعة النبات وما أشبهه؛ لأن النبات شيء عليه شيء وإن الإنسان لم يك شيئا. وكان من المادة اليسيرة النزرة شيء كثير جليل خطير، والإنسان يحول قبل تمامه من حال إلى حال وينمي حالا فحالا، ويسند من شيء إلى شيء آخر، ويكون خلقا بعد خلق، ويتهيأ بعضه من بعض، ويوما فيوما وشهرا فشهرا حتى تكتمل مدة معلومة، وأياما معدودة. وإن كان الله تعالى قد أكمل خلق الطبائع كلها في النطفة فجعل لها مدة لا تكمل إلا فيها ولا تتم إلا عند تمامها، فكذلك هذه الصنعة إنما هي سر من الأسرار الربانية، ولم يكن أحد يعلمها لولا علمهم الله جل ذكره ذلك[2].

فهذا قول جميع الحكماء: إن النحاس يذهب لونه في التدبير، ثم يعود إليه. وكما لا يقدر أحد أن ينتزع جميع الشهوات من جسد الإنسان، كذلك النحاس لا يقدر الزئبق على تغييره وإذهاب لونه إلا في رأي العين، فأما في الباطن فلونه باق تام. فأما النحاس فإنه يذهب ببياض الزئبق، ويحيل لونه إلى الحمرة في الخبر والمنظر حتى لا يعود إلى حاله الأولى ولونه الأول أبدا، لأن للنحاس قوة عجيبة تظهر على الألوان كلها إذا كانت الألوان مغسولة قد ذهب عنها سوادها ووسخها وابيضت، فعند ذلك يجد النحاس السبيل إلى تحميرها[3].

فهذا الحجر أيها الأمير يحترق بذاته من غير حاجة منه إلى غيره، ولا يختلط به سواه؛ فهو يحرق جسمه كما يحترق العود، يصير فحما أسود، أو يبيض كما يبيض به[4].

واعلم أيها الأمير أنه لا يضيع شيء مما خلقه الله إلا مثل لونه ومثل شبهه، ألا ترى إلى حبة القمح كيف تقع في الأرض فتموت وتلين وتعفن، وتسود وتخضر وتبيض، ثم ترجع إلى جوهرها الأول كذلك جميع ما خلق الله من النبات والحيوان، أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، ومن أجل ذلك قالوا: إن الإنسان لا يلد إلا إنسانا والقمح لا يخرج إلا قمحا[5].

وقد عرفتك أن الصنعة ليست ببعيدة من خلق الإنسان، لأنه لم يكن مولودا قط من حيوان ولا نبات إلا بتعفن وتشميع وفساد في رأي العين. كذلك هذه الصنعة إنما ملاكها في أول أمرها التعفن والتمشية؛ ولذلك قال الحكيم: إن لم يتعفن لم يتماش، ولو لم يتماش لم ينحل، ولو لم ينحل لم يبيض[6].

أدلة مريانوس:

- قال حكيم: اعلموا أنكم كلما غسلتموه كان أنقى له وأجود، وإن لم تغسلوه وتنقوه لم يرجع إليه لونه.
- وقال آخر: إن النحاس وإن صدئ لم يخرج عن طبيعته الأولى، ولونه مثل الأركان التي تقطع الأصول من وجه الأرض، يعود في النبات على حاله، كذلك نحاسنا ثابت بطبعه ولونه.
- وقالت مارية: إن النحاس لم يقدر أحد أن يذهب بظله، وتكرار الزئبق غطى نوره في أول الطبخ، فلوّنه وبيّضه، ثم عطف على الزئبق في آخر الأمر فحمره[7].
- وقال أندريا: إن عملنا أوله يدخل على آخره،

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص206.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص208.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص208.

(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص208.

(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص209.

(6) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص209.

(7) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص209.

وآخره يدخل على أوله، وإنما هو شيء واحد: أب وأم غذياه وربياه، فهو فيما بين ذلك[1].

- وقالت يوثاسيته لروس: أخبرني، هل يصنع الجنس بالجنس؟ قال: نعم، وما يجتمع منه يصب فيه، واعلمي أن الله تعالى خلق الأشياء كلها، وخلق الإنسان عجبا. وأعجب منه الحجر الفرواني الأرجواني، فإن من هذا الحجر جميع الطبائع التي تلتمسها الحكماء وتطلبها. فهو يشبه النحاس، ويشبه الآبار المحرق وباقي الأجساد، فإن أصبتموه فانزعوا روحه من جسده، فإنه ينتقل من طبيعة إلى طبيعة أخرى، وليس نور مضاف إلى نور[2].
- وقال هرمس: خذ الحجر الأحمر ظاهره، والبياض عنصره، فأديموا عليه السحق حتى يظهر منه ما خفي على الناس من خيره، وهو ما بقي[3].
- يقول زوسم: إن المصورين إذا أرادوا أن يصبغوا أي لون أرادوا أخذوا من الأجساد والأعشاب ما يشاكل ذلك اللون وصوروا به منه وكذلك صنعتنا هذه الرفيعة، إنما شبهناها بالمصورين الذين يأخذون أيّ الألوان أرادوا أن يعملوا منه صبغا يصبغون به ما يشاكلهم بمثل ذلك اللون. فالصبغ إنما يخرج منه لون مثله بقوله إن نحاسهم وإن كان أحمر في أول الأمر فإنه لا ينتفع به حتى يصير أبيض. وقوله: إننا قد نفينا السواد، وأنشأنا البياض بالملح والنطرون، والذي هو بارد رطب، وعند ذلك سميناه بوريطش[4].
- وتصديق ذلك قول هرمس: إن بدء الآبار سواده، وعند ذلك التبييض بالملح والنطرون؛ لأنه كان في بدء أمره أحمر، وصار في آخر الأمر أبيض قد ذهب عنه سواده، ثم يصير أحمر مشرقا. - وقالت مارية: إن النحاس إذا أحرقته بالكبريت، ورددت عليه الرطوبة حتى يتهدم، ذهب ظله وسواده، وصار ذهبا مرتفعا خيرا مما كان[5].

سؤال خالد:

12. فما يكون التعفن؟

إجابة مريانوس:

هو العلم الذي يتم الله به التركيب بالمطلوب. واعلم أن لهذه الصنعة عملين، وهما تركيبان، وعند الفراغ من التركيب الأول يصلح للتضاعيف، وعند الفراغ من الثاني يكون التمام بإذن الله ومشيئته[6].

سؤال خالد:

13. ما هذا التركيب العجيب الذي ذكرته؟

إجابة مريانوس:

إنه تركيب لهو هو -أصلح الله الأمير- التركيب والبدء. ولكنه التركيب الذي سئلت شدة معرفته؛ لأنه من أصاب عمله فقد أصاب العمل كله، ومن لم يصب فليس يعرف من العمل شيئا[7].

أدلة مريانوس:

- هو كما قال الحكيم: اقلب الطبائع، واخلط الحار بالبارد والرطب باليابس، والتدبير اللطيف[8].

سؤال خالد:

14. فما يكون أحكم ما يكون باليد؟

إجابة مريانوس:

هو كما قال الحكيم: إن الزئبق والنار يحسنان على غر النحاس، ويطردان الظلمة عنه. وقال غيره: إن أحسنت مقادير نارك فإن الزئبق والنار يكفيانك العمل إن شاء الله تعالى. كما قال الحكيم: أنشبوا القتال بين النحاس والزئبق «بالنار والحرق»[9].

سؤال خالد:

15. هل قبل التعفن عمل تدبير؟ وما ذلك التدبير؟

إجابة مريانوس:

نعم تدبير استنباط الماء من الأرض، وإرساله

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص210.
(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص210.
(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص210.
(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص211.
(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص211.
(6) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص211.
(7) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص212.
(8) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص212.
(9) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص212.

عليها؛ لأن الماء يعفن، والماء يغسل، فإذا أحكمت غسلها فقد أحكمت العمل كله وأدركت بغيتك، وهو تدبير أهل العلم المعرفة. واعلم أنك إن لم تحكم علاج الجسد الوسخ حتى تنقيه وقد حل الروح فيه –حتى يقع فيه الصبغ وهو نقي طيب الرائحة ليس فيه وسخ ولا نتن – فإنك لم تحكم من العمل شيئا. واعلم أن الروح سريعة المشي في جسدها، وإن كلفتها المشي في غير جسدها لم تجب إلى الدخول فيه[1].

سؤال خالد:

16. فاذكر العلاج الثاني إن كان فيما ذكرت تمام العمل الأول؟

إجابة مريانوس:

إذا أحكمت علاج الجسد، فأدخل بعد ذلك من الخمير ربع جزء من خمير الذهب، ومن خمير الخمير ما يصلح، واحملهم على الطبخ في الشمس، حتى إذا صاروا شيئًا واحدا وجسدا واحدا جافا فابدأ على بركة الله وعونه في الغسل، وهو أن تصب على جزء من السم وتطبخه به مليا. وانتظر لا تنقص من أيامه شيئا، ولا تغفل أمر النار فتهلك وتطفئ نارها، واحذر شدة النار فتهلك، تنظر على ما فيها مما يرجى خيره ونفعه. ثم اعمل إلى قدرك بعد سبعة أيام إلى الإكسير، فإن كان قد شرب الجزء الذي جعلته فيه من السم فاسقه جزءا آخر من بياض البيض الفلسفي، وزد في قوة نارك قليلا حتى يشرب اليابس الرطب، فإذا عاد إلى الثلثين فاسقه من الماء النقي كما فعلت به من قبل ذلك، وافعل به ذلك من السقي والطبخ حتى يستوعب شرب جميع ما كان تقيأه من الماء ولا يبقى منه شيء[2].

فعند ذلك تظهر الأزهار، وتختلف الألوان، ويلبس الإكسير لباس الملوك، ويستلذ العذاب، ويصبر على الحر الشديد واحداً وعشرين يوما، وهذا كله موجود في كتب الحكماء فاطلبه، فإنك تجده بينا واضحا مشروحا بإذن الله تعالى[3].

سؤال خالد:

17. فهل فرغ تدبير الإكسير أو بقي شيء منه لم تخبرني به؟

إجابة مريانوس:

قد فرغ لمن أحب الاختصار، فأما من أحب الفاتر فليسقه من الماء الخالد، فإنه يزيد صبغة وقوة، ومالي أكثر عليك أيها الأمير، اعلم أنه يزيد في صبغه بلا نهاية، ويشرب كلما تسقيه بلا نهاية[4].

يتضح من الحوار أن مريانوس بدأ طريقته في عرض نصائح عامة لطالب العلم، منها التأني والصبر، ليحصد الرزق الوفير بعد التعلم، الذي يتم بقدرة الله عز وجل.

وفي معرض الإجابة عن أسئلة خالد بين أن الذهب مكون من عنصر واحد وأصل واحد، وأن تحضيره يحتاج إلى الحرارة (النار)، والبرودة (الماء)، واليبوسة (الأرض)، والرطوبة (الهواء). وأن الاختلاف في التراكيب والأوزان والمكاييل لا يؤثر في التدبير –الطريقة– كما أن تغير لون الذهب قبل صنعه يتأثر باستخدام الرماد الذي يغير من ألوانه تبعا لاختلاف درجة الحرارة؛ فيكون أبيض فأسود فأحمر (يلبس سائر الألوان).

وأما المعدن الأم فهو النحاس الذي يمتاز بالرائحة الكريهة عند بداية استخراجه، وإن التغلب على هذه الرائحة يكون بعد غليه بالماء الذي يسهم في تنقيته من الشوائب (أتربة، أوساخ، معادن أخرى)، ثم إن النحاس متوفر في كافة المناطق وأحقرها كالمزابل مثلا، فهو لا يحتاج إلى مزيد عناء للحصول عليه.

أما طريقة تحضيره –مراحل التشكل– فقد شبهها بمسألة خلق الإنسان (تزويج، وتلقيح، وولادة، وتربية)، وتتم بإحضار النحاس وغسله بالماء وكلما ضاعفنا ذلك أسهمنا في زيادة نقائه، ثم يضاف إليه الزئبق الذي يغير لونه إلى الأبيض في الظاهر، غير أن الواقع أن لون الزئبق هو الذي يتغير فيضفي اللون الأبيض على النحاس، وبتكرار التسخين والتبريد ثم تركه إلى أن يتعفن، ثم يتحلل إلى أن يصبح أبيض اللون –ومن الأمور التي يمكن أن تزيل الشوائب عن النحاس وتزيل سواده غليه بالكبريت– ثم تضاف مادة مخمرة عليه ويترك في الشمس ثم يغسل بالماء بحرارة معتدلة، ثم يترك

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص213.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص213.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص213.

(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص214.

ليجف، ثم يضاف عليه الزئبق ويترك سبعة أيام، ويراقب مدى تشرب النحاس للزئبق فإن شربها أضيف إليه مادة مبيضة، وتتم إعادة غليه حتى تتبخر جميع السوائل المضافة، ويترك في الشمس واحدًا وعشرين يوما، فيكون الإكسير بين يديك، ولمن أراده أكثر بياضا وقوة عليه أن يكرر عملية غليه بالماء وغسله، وقد دلل على كافة أفكاره بأمثلة من رأي الحكماء السالفين.

هذه هي الطريقة التي استخدمها مريانوس مع خالد. وقد أكد مريانوس أنه جلس مع خالد في معمله وجرب تلك التجربة فنجحت، وتم له بذلك تسجيل سبق عربي إسلامي في مجال صناعة الذهب. وكان هذا مما شجع خالد على تعلم أمور علمية أخرى أسهمت في تطور الفكر الحضاري وفي دعم النهضة الحديثة بالأسس الأولى لبعض المنجزات كما سأذكرها تاليا.

اهتمامات خالد بن يزيد العلمية

- دراسة كتب الفلاسفة ورسائلهم «عكفت على درس كتب الفلاسفة، وقرأت الأوضاع السالفة. وطالعت الكثير من تأليفهم، ووعيت الأعداد من رسائلهم» كما ورد سالفا.
- البحث والسؤال عن أصحاب هذا العلم (الإكسير) «وكان لا يفتر عن السؤال عن أمرها والبحث فيها، وعمن يرجو أن يجد عنده علما منها ومعرفة بها»[1].
- الاعتماد على غالب مولاه وخادمه وأمينه وثقته في تسجيل ما ورد من حوار بين خالد ومريانوس، حيث قال له خالد: «الزم يا غالب هذا الشيخ، واحفظ ما تراه منه، فإني أخاف أن يهلك قبل أن تأخذ علمه بفضله وجوده»[2]، وكذلك طلب مريانوس من غالب الدقة والحذر في التدوين «واكتب ما يدور بيني وبينه من السؤال والجواب، وتيقظ له، وكن محترزا، وإياك أن تسقط منه شيئا»[3]. «فتلقن منه خالد، ولم يزل مكبا على قراءة كتب الحكماء، ناظرا فيها، يقتبس بعضها على بعض، ويستشهد لبعضها ببعض، حتى وهبه الله تعالى معرفة ما التمسه»[4].
- بعدما أصبح عالما بهذا الفن «فرفض الدنيا، وانحاز عما كان فيه أبوه وجده من أمر الخلافة، وأفنى عمره منفردا»[5] اعتزل الحياة السياسية، وترك النظر في حقه المغتصب بالخلافة وزهدها.
- أسهم في سك النقود: ويبدو أن عبد الملك كان قد استفاد من خبرة خالد بن يزيد بن معاوية، في مسألة سك الدنانير والنقود، ففي الوقت الذي أنكر فيه ملك الروم ما أصلحه عبد الملك من بعض التغيرات على النقود، أشار خالد بن يزيد على عبد الملك بأن «حرم دنانيرهم، واضرب للناس سككا فيها ذكر الله ورسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير» ففعل ذلك[6].

ويرى المقريزي أن سبب سك عبد الملك الدنانير والدراهم وتعريبها كان بإشارة من خالد بن يزيد بن معاوية الذي قال: «يا أمير المؤمنين إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمرا من قدس الله تعالى في الدرهم». فعزم عندها عبد الملك على سك العملة الإسلامية[7].

وفي رواية مشابهة يبدو أن عبد الملك كان قد استفاد من خبرة خالد بن يزيد بن معاوية، في

(1) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص194.

(2) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص207.

(3) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص198.

(4) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص207.

(5) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص214.

(6) ابن قتيبة، عيون الأخبار 1/ 296-297. وابن العديم، بغية الطلب 7/ 3194. والسيوطي، المهذب من تاريخ الخلفاء، ص 160. وابن الأثير، الكامل 4/ 417.
والطوامير: مفردها طومار وهي قطع الورق. القلقشندي، صبح الأعشى 3/ 54.

(7) المقريزي، النقود الإسلامية، ص69.
كما أن هناك أسبابا متعددة دفعت عبد الملك لتعريب النقود، منها أسباب سياسية لإعطاء البلاد مظهرا من مظاهر القوة، والمنعة، وإدارية لضبط ومراقبة ومتابعة شؤون الدواوين، وخاصة بيت المال، واقتصادية لإيجاد حجر الأساس الذي يقوم عليه الاقتصاد الأموي، وللتخلص من التبعية الاقتصادية الرومانية، وقومية تزامنت مع حركة التعريب للدواوين. الناطور، الثورة النقدية في عهد عبد الملك بن مروان، ص89. وخماش، تعريب النقد وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الاقتصادي، ص 139-145.

مسالة سك الدنانير والنقود، ففي الوقت الذي أنكر فيه ملك الروم ما أصلحه عبد الملك من بعض التغييرات على النقود، أشار خالد بن يزيد على عبد الملك بأن «حرم دنانيرهم فلا تتعامل بها، واضرب للناس سككا فيها ذكر الله ورسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير»[1]. ونصح الخليفة بإنشاء دار للضرب[2]. فشكر عبد الملك لخالد تلك النصيحة قائلا: «فرّجتها عني فرّج الله عنك»[3].

- **له تجارب في تحلية مياه البحار**: وهذا يدل على امتلاكه فكرًا في طرق تحلية مياه البحار وتنقيتها من الأملاح والشوائب، فقيل: وتذاكروا الماء بحضرة عبد الملك بن مروان فقال خالد: «منه ما يكون من السماء ومنه ما يستقيه الغيم من البحر، فيعذبه البرق والرعد، فأما ما يكون من البحر فلا يكون له نبات، وأما النبات فإنما يكون ماء السماء، ثم قال: إن شئتم أحليت لكم ماء البحر، فأتى بقلال من ماء ثم وصف كيف يصنع به حتى يعذب»[4].

وفي هذا دليل واضح على معرفة خالد بالدورة المائية، كما أنه علل أن الماء المتبخر من مياه البحار يكون غير نقي، وذلك لزيادة نسبة الملوحة فيه، كما أنه يقدم طريقة علمية لتنقية مياه البحار.

- **الأسلحة**: أما عن مصدر السلاح لخالد بن يزيد، فيبدو أن خالد بن يزيد كان واليا على حمص في هذه الحقبة، فروي أنه بنى مسجدها، وكان له أربعمائة عبدٍ يعملون في المسجد، فلما فرغوا من بنائه أعتقهم[5].

وبالتالي فإن الذي يملك هذا العدد من العبيد، فلا بد أنه يملك السلاح، ثم إن هناك مصدرا آخر لسلاحه، وهو ما قد يكون في منزل جده معاوية وأبيه يزيد وأخيه معاوية باعتبارهم خلفاء، ولا يخلو منزلهم من السلاح.

كما أن ما اشتهر به خالد من علم الكيمياء التي توفر المادة الأولية لصناعة السلاح، وشغفه بهذا العلم يرجح أن يكون لديه فكرة عن تصنيع السلاح، وتزويد مروان به.

- **أبدع في الأدب والشعر وله أشعار كثيرة**: ومما يثبت ممارسة خالد بن يزيد لعلم الكيمياء ما قيل من شعر على لسانه:

خُذ الطلقَ مع الأشق وما يوجد في الطرق
وشيئا يشبه البرقا فدبره بلا حرق
فإن أحببت مولاكـ فقد سوّدت في الخلق[6]

- **أبدع في اللغة**: فلم يهمل خالد بن يزيد الجانب الأدبي، وتعزى فصاحته إلى حفظه القرآن الكريم، وقد كان من الذين يقضون معظم وقتهم في الإرشاد والتذكير بسيرة الرسول محمد ﷺ[7]. كما كان واعظا، فقد قيل لخالد: ما أقرب شيء؟ قال: الأجل. قيل: فما أرجى شيء؟ قال: العمل. قيل: فما أوحش شيء؟ قال: الميت. قيل: فما آنس شيء؟ قال: الصاحب المواتي. وقيل له: ما الدنيا؟ قال: ميراث. قيل: فالأيام؟ قال: دول. قيل: فالدهر؟ قال: أطباق، والموت يكمل سبيله فليحذر العزيز الذل، والغني الفقر[8].

- **طبق خالد المنهج التجريبي الحديث -التطبيقي-** بعد أن بنى معملا كيميائيا لهذه الغاية ونجح في تلك الصناعة تحت إشراف مريانوس. «ثم أقام مريانوس عند خالد إلى أن نظر إلى العمل عيانا. وبلغ من العلم فهمه وبنى له قصرا هو معروف إلى هذه الغاية بقصر خالد»[9].

- **من أبرز مؤلفاته**: ما ذكره صاحب الفِهْرِست قال: «الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما ذا رأي. وهو أول من ترجم له كتب الطب، والنجوم، وكتب الكيمياء، وكان جوادا. يقال إنه قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضا إلا أن أبلغ آخر هذه الصنعة، فلا أحوج أحدا، عرفني يوما أو عرفته، إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة. ويقال -والله أعلم- إنه صح له عمل الصنعة، وله في ذلك كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار 1/ 296-297. وابن العديم، بغية الطلب 7/ 3192. والسيوطي، المهذب من تاريخ الخلفاء، ص160. وابن الأثير، الكامل 4/ 417.
(2) ابن العديم، بغية الطلب 7/ 3194.
(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار 1/ 297.
(4) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق 5/ 122-123.
(5) البلاذري، أنساب الأشراف 4/ 1/ 364.
(6) قاري، نشأة العلوم، ص 103.
(7) شربل، موسوعة علماء الكيمياء، ص 146-148.
وكان خالد حريصا على نقل علومه لأبنائه، فقد وصف حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية أنه عالم عاقل فاضل. ابن عساكر، تاريخ دمشق 12/ 312.
(8) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ص 122.
(9) خالد بن يزيد، ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، ص412.

المعنى. رأيت منه نحو خمسمائة ورقةٍ ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة»[1].

الخاتمة

توصلت من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج هي:

1- وجد خالد بن يزيد في إقصائه عن الخلافة دافعا للتفرغ للعلم، فأبدع بذلك بعد أن فكر وقرب إليه أصحاب الاختصاص، وطالع كتب الأقدمين. فاهتم بعلم الكيمياء الذي بإمكانه تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة، وبذلك تزيد الثروة المادية.

2- انتقل خالد من مرحلة التعلم النظري إلى استخدام الأسلوب التطبيقي القائم على التجربة والملاحظة والاستنتاج، من خلال إنشاء المعمل الكيميائي الذي طبق فيه صناعة الذهب تحت إشراف معلمه مريانوس ونجح في ذلك. وهذا ما يؤكد واقعية تطبيق النتائج التي توصل إليها البحث.

3- تعلم خالد طريقة صناعة الإكسير وتعلم أن الذهب مكون من عنصر واحد وأصل واحد، وأن تحضيره يحتاج إلى الحرارة (النار)، والبرودة (الماء)، واليبوسة (الأرض)، والرطوبة (الهواء). وأن الاختلاف في التراكيب والأوزان والمكاييل لا يؤثر في التدبير -الطريقة- كما أن تغير لون الذهب قبل صنعه يتأثر باستخدام الرماد الذي يغير من ألوانه تبعا لاختلاف درجة الحرارة؛ فيكون أبيض، فأسود فأحمر (يلبس سائر الألوان). وأما المعدن الأم فهو النحاس الذي يمتاز بالرائحة الكريهة عند بداية استخراجه، وأن التغلب على هذه الرائحة يكون بعد غليه بالماء الذي يسهم في تنقيته من الشوائب (أتربة، أوساخ، معادن أخرى)، ثم إن النحاس متوفر في جميع المناطق وأحقرها، فهو لا يحتاج إلى مزيد عناء للحصول عليه.

أما طريقة تحضيره -مراحل التشكل- فقد شبهها بمسألة خلق الإنسان (تزويج، وتلقيح، وولادة، وتربية)، وتتم بإحضار النحاس وغسله بالماء وكلما ضاعفنا ذلك أسهمنا في زيادة نقائه، ثم يضاف إليه الزئبق الذي يغير لونه إلى الأبيض في الظاهر، غير أن الواقع أن لون الزئبق هو الذي يتغير فيضفي اللون الأبيض على النحاس، وبتكرار التسخين والتبريد ثم تركه إلى أن يتعفن، ثم يتحلل إلى أن يصبح أبيض اللون -ومن الأمور التي يمكن أن تزيل الشوائب عن النحاس وتزيل سواده غليه بالكبريت- ثم تضاف مادة مخمرة عليه ويترك في الشمس ثم يغسل بالماء بحرارة معتدلة، ثم يترك ليجف، ثم يضاف عليه الزئبق ويترك سبعة أيام، ويراقب مدى تشرب النحاس للزئبق فإن شربها أضيف إليه مادة مبيضة، وتتم إعادة غليه حتى تتبخر جميع السوائل المضافة، ويترك في الشمس واحدًا وعشرين يوما، فيكون الإكسير بين يديك، ولمن أراده أكثر بياضا وقوة عليه أن يكرر عملية غليه بالماء وغسله، وقد دلل على جميع أفكاره بأمثلة من رأي الحكماء السالفين.

هذه هي الطريقة التي استخدمها مريانوس مع خالد. وقد أكد مريانوس أنه جلس مع خالد في معمله وجرب تلك التجربة فنجحت -ولا تزال آثار بقايا معمله موجودة حتى الآن في مدينة حمص في سوريا- وتم له بذلك تسجيل سبق عربي إسلامي في مجال صناعة الذهب. وكان هذا مما شجع خالد على تعلم أمور علمية أخرى أسهمت في تطور الفكر الحضاري وفي رفد النهضة الحديثة بالأسس الأولى لبعض المنجزات.

4- كان من نتائج نجاح خالد في صناعة الإكسير أن اهتم بصناعة الأسلحة، وطرق تنقية المياه وتحليتها، كما لم يغب عنه الاهتمام الأدبي. كما اهتم بعلم الطب؛ لحاجة الناس للأدوية، ولوقايتهم من الأمراض في ظل انتشار الطاعون وغيره من الأمراض، واهتم بعلم الفلك لخدمة التجارة وما يحتاجه المسلمون من الإلمام بحركة النجوم.

والحمد لله رب العالمين

(1) ابن النديم، الفِهْرِست، ص 544- 545. وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين 1/ 195. وابن قتيبة، المعارف، ص 198. والطبري، تاريخ الرسل والملوك 5/ 500. وابن العديم، بغية الطلب 7/ 3187. والذهبي، سير أعلام النبلاء 4/ 382- 383. والذهبي، تاريخ الإسلام 6/ 56. والمقريزي، المقفى الكبير 3/ 776.

المراجع

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي الجزري. 1385هـ/ 1965م. الكامل في التاريخ. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي الجزري. تحقيق: مأمون، خليل. 1418هـ. أسد الغابة في معرفة الصحابة. الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن الطقطقي، محمد بن علي. تحقيق: عبد القادر، محمد. 1418هـ/ 1997م. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. الطبعة الأولى، دار القلم العربي، حلب، سوريا.

ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرارة. تحقيق: زكار، سهيل. 1408هـ/ 1988م. بغية الطلب في تاريخ حلب. الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق. ضبط: طويل، يوسف علي. د.ت. الفِهْرِست. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر. 1417هـ/ 1996. تاريخ ابن الوردي. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد الدومي الدمشقي الحنبلي. د.ت. تهذيب تاريخ ابن عساكر. الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت، لبنان.

ابن سعد، محمد. 1380هـ/ 1960م. الطبقات الكبرى. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. تحقيق: العريان، محمد سعيد. 1359هـ/ 1940م. العقد الفريد. الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، سوريا.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف النميري القرطبي. تحقيق: البجاوي، علي محمد. د.ت. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. بدون رقم الطبعة، دار نهضة مصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي. تحقيق: شيري، علي. 1996. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها. بدون رقم الطبعة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تعليق: المنصور، خليل. 1418هـ/ 1998. الإمامة والسياسة. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. د.ت. عيون الأخبار. بدون رقم الطبعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس. تصحيح: أمين، أحمد، والزين، أحمد. د.ت. الإمتاع والمؤانسة. بدون رقم الطبعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن مروان بن الحكم الكاتب. 1978م. الأغاني. الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

بريل، جي. تحرير: هوتسما، وأرنولد، وباسيت، وهارتمان. ترجمة: الشنتناوي، أحمد، وخورشيد، إبراهيم، ويونس، عبد الحميد. 1998. موجز دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الأولى، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة.

البكري، أبو عبد الله عبد العزيز البكري الأندلسي. تحقيق: السقا، مصطفى. 1945. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. بدون رقم الطبعة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. تحقيق: عباس، إحسان. 1979. أنساب الأشراف. بدون رقم الطبعة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.

البياسي، أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري. تحقيق: جاسر، شفيق. 1408هـ/ 1987م. الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام. الطبعة الأولى، بدون دار نشر، عمان، الأردن.

الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر. تحقيق: حويدي، درويش. 1430هـ/ 1999م. البيان والتبيين. بدون رقم الطبعة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر. تحقيق: فاعور، علي. 1991. المحاسن والأضداد. الطبعة الأولى، دار الهادي، بيروت، لبنان.

حسين، فالح. 1974. الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي. رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

خالد بن يزيد، ابن معاوية. د.ت. ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس. صورة المخطوط المحفوظ بخزانة الكتب الظاهرية بدمشق، سوريا.

خليفة، أبو عمر بن خياط العصفري. مراجعة: نجيب، مصطفى، وكشلي، حكمت. 1415هـ/ 1995. تاريخ خليفة. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

خماش، نجدة. 1984م. تعريب النقد وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الاقتصادي. مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، سوريا، العددان 15-16، ص ص 139-145.

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب. تحقيق: النجار، نهى. 1993. مفاتيح العلوم. الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

الدفاع، علي عبد الله. 1403هـ/ 1983م. إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق: الأرناؤوط، شعيب. 1985. سير أعلام النبلاء. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق: التدمري، عمر عبد السلام. 1409هـ/ 1989م. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل. 1975. تاريخ الخلفاء. بدون رقم الطبعة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. تحقيق: العباس، نايف. 1420هـ/ 1998م. المهذب في تاريخ الخلفاء. بدون رقم الطبعة، دار الألباب، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان.

شربل، موريس. 1411هـ/ 1991م. موسوعة علماء الكيمياء. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل. 1980. تاريخ الرسل والملوك. بدون رقم الطبعة، دار سويدان، بيروت، لبنان.

العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: البجاوي، علي محمد. 1412هـ. الإصابة في تمييز الصحابة. الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، لبنان.

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن الحسين المكي. تحقيق: سيد، فؤاد. 1967. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. بدون رقم الطبعة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

فروخ، عمر. 1983م. تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية. الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

قاري، لطف الله. 1406هـ/ 1986م. نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي. الطبعة الأولى، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف المصري. تصحيح: كست، رفن. 1908. كتاب الولاة وكتاب القضاة. بدون رقم الطبعة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. تحقيق: عبد الحميد، محمد محيي. 1408هـ/ 1988م. مروج الذهب ومعادن الجوهر. بدون رقم الطبعة، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. تحقيق: البعلاوي، محمد. 1991. المقفى الكبير. الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. تحقيق: بحر العلوم محمد. 1988. النقود الإسلامية المسمى شذور العقود في ذكر النقود. الطبعة السادسة، دار الزهراء، بيروت، لبنان.

الناطور، شحادة. 1412هـ/ 1991م. الثورة النقدية في عهد عبد الملك بن مروان. مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العراق، العدد 44، السنة 16، ص 89.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. تحقيق: الجندي، فريد عبد العزيز. 1968. معجم البلدان. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. د.ت. تاريخ اليعقوبي. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

The Role of Khalid ibn Yazid in Elixir Production during Omayyad's Era A Study of Manuscript of Khalid and Marianos Dialogue

Mohanad Nayef Mustafa Aldajah

Department of Social Studies, Faculty of Arts, King Faisal University
Al-Ahsa, Saudi Arabia

ABSTRACT

Publicizing the bright side of Muslim Arab civilization did not receive full attention. Most examine roles of Muslims scientists' was focusing on humanitarian sciences development. This work aimed to shed light on the efforts of an Arabic scientist in developing natural sciences, Khalid ibn Yazid in chemistry, particularly in the manufacturing of gold (Elixir). The work mainly approaches the applied side of his efforts.

Due to the importance of this subject and its relation and the relationship of political and scientific sides of the studied person, the study had two main sections; the first handeled the political-scientific change in Khalid's life when he was denied his right to be caliph (according to Omayyad system) and its consequences. The second section represented the applied scientific part of producing Elixir, where Khalid's true motivations to practice this science were presented. This includes his scientific methodology, his personal experience in acquiring knowledge, and his approach to establish relations with the monk Marianos to learn the work secrets. Based on his questions to Marianos, Khalid established a laboratory in his palace to transfer the theoretical science into applied science. By doing so, he shared in supporting Arabic Islamic civilization by examining a method to convert cheap raw materials to precious metals. Indeed, his work encouraged him to master many other areas such as arm manufacturing.

Key Words: Gold, Precious metals, Transcripts**.**